لون السما برتقالي محمر

علي الزيدي

لون السما برتقالي محمر / يوميات

علي الزيدي كاتب مغربي

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩

OKTOB.NET

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج

هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧

موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ ـ ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥

dar_oktob@gawab.comE – mail :

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف:

حاتم عرفة

تدقيق لغوي :

حسام مصطفى إبراهيم

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/٧٢٣٣

I.S.B.N: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٩٧-٨٣-٣

لون السما برتقالي محمر

يوميات طفل مغربي بالعامية المصرية

علي الزيدي

الطبعة الأولى

٢٠٠٩



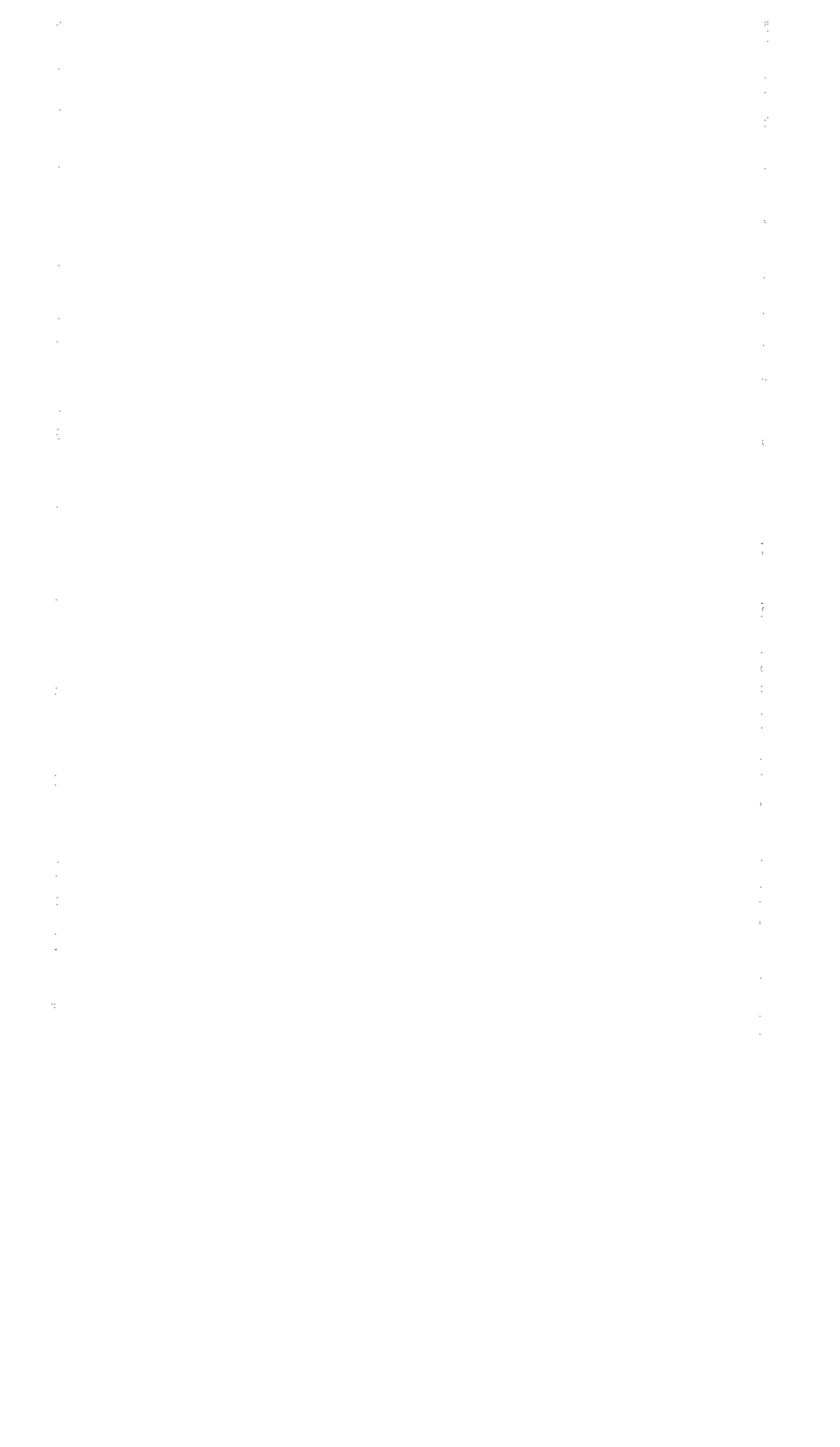
دار اكتب للنشر والتوزيع



إهداء إلى :

علي لما كان عمره خمس سنين،

وأمي وأبي طول العمر.



مقدمـــة

لما خلصت الرواية دي، قابلت بنت صغيرة عمرها ٣ سنين، اسمها نورهان..

تعرفنا على بعض.. وقعدنا في البلكونة..

بقينا أصحاب.. سألتها:

- هي السما قريبة ولا بعيدة؟

بصت لي، وبصت للسما وشاورت عليها وقالت لي:

- أهــــــــه..!!

قلت لها:

- أيوه.. بس أنا عايز أعرف، هي قريبة ولا بعيدة؟

بصت لي باستغراب المرة دي، وبصت للــسما وشــاورت عليها تاني وقالت لي:

- أهـــــــــه.. إنت مش شايفها..؟!

ضحكت وفهمت من حركتها وهي بتشاور على الـــسما، ومن نبرة صوتها وهي بتكلمني، إنها قريبة..

لأن وإحنا صغيرين لما كنا نشاور على حاجة بعيدة، كنـــا نغمض عنينا ونشاور عليها ونمد في صوتنا ونقول:

- هنــــــــــــــــــــــــــــاااااااااااااااك..

وإحنا صغيرين السما كانت قريبة..

المؤلف

مع إن السما ألوانها كثيرة، أزرق وأسود وأحمر ورمادي وساعات ألوان مدرجة جميلة...إلا إن مدرستنا، مدرسة الأزهار الابتدائي،اختارت اللون الأزرق..

- لون السماء أزرق.. وعلم بلادي جميل..

ماعرفش ليه! يمكن لأن مدير المدرسة بيحب اللون الأزرق؟ مع إنه دايمًا لابس بدلة سودا، ونظارة شمس خضرا، كان نفسي يختاروا اللون البرتقالي المحمر.

****

كان عندي إحساس إني مختلف عن باقي العيال اللي في المدرسة، على شان كده قررت وفجأة.. أغيّر من تسريحة شعري وأسرّحه لورا زي "ترافولتا"، بخلاف كل العيال اللي تسريحتهم كانت على جنب، يومها العيال اللي في المدرسة اتريقوا عليا وضحكوا كثير، ومع ذلك قررت ما اتراجعش في تسريحة شعري، بعدها بفترة بدءوا العيال اللي في المدرسة يسرّحوا شعرهم لورا زيي..حتى المدرسين والناس اللي في الشارع، ساعتها حسيت إني ممكن أغيّر حاجات كثيرة.

****

خديجة المصلوحي..

دي المُدرِّسة بتاعتي في التحضيري، سقطتني أول سنة، لأنها افتكرت إني غشيت من "توتاوا"،

مع إن "توتاوا" هو اللي غش مني..سألتنا:

- مين اللي غش من التاني؟

أنا سكت على شان مارضتش أكسف" توتـــاوا"، لكـــن "توتاوا" طلع أنصح مني، رفع إيده وقال لها:

- هو يا أستاذة اللي غش مني.

ساعتها حبيت أتكلم، لكن الأستاذة خديجة نهرتني وقالـــت لي:

- اخرس.. ماتنطقش ولا كلمة..

حسيت بإحساس كده.. الحقيقة اتكرر معايا كـــتير بعـــد كده.. عرفت بعدين إن اسمه الإحساس بالظلم..كان أول مرة أعرف إن ثمن الجدعنة.. إني أسقط وأعيد السنة!!

ولما عِدت السنة، حطوني في فصل جديد ماعرفهوش، مـــع أستاذة جديدة هي كمان ماعرفتهاش، رحت لأمي وعيطـــت، وقلت لها:

- أنا عايز أرجع للفصل بتاعي مع المُدرِّسة بتاعتي خديجة.

أمي راحت معايا المدرسة واعتذرت للمدرسة الجديدة، وطلبت من الأستاذة خديجة ترجعني معاها تاني، الأستاذة خديجة خدتني من إيدي ورحنا على الفصل الأولاني، الفصل اللي حيطانه مش غريبة عليا، وسبورته.. أعرفها كويس، والكرسي بتاعي اللي لسه مستنيني، وشبابيكه اللي بتطل على النخلة الكبيرة اللي مليانة رطب، اللي نفسي أعرف سكتها منين.

الأستاذة خديجة بقت فرحانة بيا، افتكرت.. إني ماقدرتش على فراقها، وأنا الحقيقة ماقدرتش على فراق الفصل بتاعي، بقت هي تعاملني كويس، وأنا في الثلاث دورات أطلع الأول.

في السنة دي، حصل حاجتين مهمتين..

الحاجة الأولى: إن الأستاذ خديجة كانت عايزة تشتري عربية بابا الأُورنج الصغيرة، لكن بابا ماكنش عايز يبيع العربية، فبعث معايا أخويا الكبير رشدي للمدرسة، على شان يعتذر لها. قابلتهم ببعض، وعرَّفتهم على بعض:

- أخويا رشدي... المُدرِّسة بتاعتي خديجة...

تشرفنا.

سلموا على بعض، سبتهم ودخلت على الفصل بتاعي وقعدت، وفضلوا هما واقفين عند باب الفصل بيكلموا كثير، منسجمين مع بعض، مبتسمين، حسيت إنهم ممكن يلعبوا عريس وعروسة.

الحاجة الثانية: حصل، إن ولد من الولاد الصيع اللي في المدرسة، وكان أكبر مني، شرط المريلة بتاعتي وقطعها لي بموسى حلاقة، اشتكيته للمدرسة بتاعتي خديجة، وكان يومها السما بتمطر جامد، مسكتني من إيدي، وطلعنا من الفصل بنجري تحت المطرة الغزيرة، وهي بتداريني بإديها الثانية على شان تحميني من المطرة وبتقولي:

ـ خليك لازق فيا.

حسيت بحنيتها، وإني اتصرفت صح لما طلبت من ماما ترجعني الفصل عندها، فضلنا نجري لغاية ما دخلنا الفصل اللي فيه الولد الصايع، كان نفسي نفضل نجري ونجري... أكتر من كده..

شاورت لها على الولد، فندهت له هي والأستاذ بتاعه، وبخووه.. وقالت لي:

- احكم بنفسك، عايز نعمل فيه إيه.

قلت لها:

-أنا مسامحه.!!

قالت له هي:

– شفت، إنه طلع أحسن منك إزاي، وسامحك، لــو مــا كنش سامحك بنفسه، كنت هركب لك ودنين حمار، وألففك المدرسة كلها.

الحقيقة بعدما سامحته، وريته لأخويا زكريا اللي أكبر مــني، مسكه بره المدرسة، وإدى لــه علقــة ماحــصلتش!! ودول الحاجتين المهمين اللي حصلوا، وخلوا علاقتنا أنــا والأســتاذة خديجة تتوطد، وننسى اللي فات، ونفتح صفحة جديدة.

****

صحيان الصبح بدري على شان المدرسة، كان بيبقى شيء مزعج جدًا، كانت أمي بتصحيني فأترجاها إنها تسبني كمــان شوية صغيرين، ماكنتش بترضى، كانت تقول لي:

– يلا على شان الوقت فاتك..الساعة بقت ٧:٣٠.

أصحى وأقوم، أبص للساعة الكبيرة اللي متعلقة على الحيطة في وسط الدار، ألاقي العقرب الصغير عند ٧ والكبير عند ١٢ يعني لسه الساعة ماوصلتش ٧:٣٠، كانت تقولي:

- ٧ و ٧:٣٠ زي بعض.

ماكنتش بصدق، لكن مابنقشهاش على شان هي ماما، لــو كانت ٧ زي ٧:٣٠ أكيد ماكناش هنحتاج ساعة في البيــت خالص!!

الجو كان بيبقى ساقع، والمياه كمان ساقعة، أغسل وجهي، وأقعد عند الفطار وإيديا ما بين رجلي بسخنهم، وأمــي هــي اللي بتأكلني بإيديها.

تلبسني المريلة البيضاء، وتسرحلي شعري، وتشيلني شــنطة المدرسة، وتقولي:

- يلا على شان ما تتأخرش على المدرسة.

أبص في المراية، وأطمئن على تسريحة شعري، وأمشي.

وبره كانو العيال اللي قدي، بيبقو ماشيين مــع مامتــهم لابسين المرايل البيضة، ومامتهم هي اللي شايلة شنطة المدرسة، إنما أنا خلاص، بقيت أعرف أمشي لوحدي.

كنت بحب أبص للسما وأنا ماشي.. كل الناس بتقــول إن السما بعيدة، لكن أنا شايفها قريبة، أمد إيدي للسما وأبــص عليها، وأقول في حس بالي:

- لو أطول بس شوية كمان،

همسك السما بإيدي.

****

الجمعة والأحد إجازة، كنت بوصي أمي تصحييني بدري زي الأيام العادية، على شان أحس بحلاوة طعم النوم، وأرجع أنام تاني، لكن الظاهر إن طعم النوم مابيبقاش حلو إلا في ايام المدرسة، إنما الإجازات أصحى وماعرفش أنام تاني، أفطر وأخرج بره نلعب أنا و أولاد"عمي امحمد"، "ياسين" و"نوفل".

ومرة وإحنا بنلعب، "نوفل" مسك صفيحة بويه فاضية قديمة، وقال لنا:

- أنا هعمل **عكسري.**

قصده **عسكري،** لبس الصفيحة على راسه، فدخلت راسه جوا الصفيحة واتحشرت، حاولنا -أنا وياسين- نطلعها، بس ماعرفناش، كان بيصرخ من جوا الصفيحة، ويقول:

- اندهولي ماما، أنا عايز ماما.

ندهنا على مرات عمي امحمد، فجات مخضوضة! قعدت تصوَّت، فالعائلة اتلمت كلها، بقت عمتي "راضية" ماسكة

"نوفل"، وعمتي"رحمة" تشد الصفيحة من راسه، و"نوفل" يصرخ جوا، ومامته تبكي وتقولهم:

- بالراحة عليه على شان

مايتخنقش..!!

لغاية لما عمتي "جميلة" قالت لأخويا "زكريا"، يروح يجيب أقرب حداد عندنا في الحتة، جه الحداد..

وقعد يضرب على الصفيحة بالمسمار والشاكوش، و"نوفل" يصرخ، ومامته تبكي وتقول:

- ابني هيروح مني.

وأخيرًا الحداد عرف يخرج راس "نوفل" من جوا الصفيحة، وأمه حضنته، وقعدو هما الاثنين يبكوا، وإحنا كلنا بنضحك، "نوفل" بعد كده، بقى لما يحب يلعب عسكري، يحط على راسه علب البلاستك بدل الصفيح، على شان لو راسه اتحشرت، نعرف نطلعه من غير ما نجيب الحداد.

****

"رضا" ابن خالي، كان كل سنة يحتفل بعيد ميلاده، وكانت مامته.. مراة خالي يعني، تعزم إخواتها وتعزمنا كلنا، كانت

شاطرة قوي، بتعمل التورتة بإيديها، وكنا كلنا نجيب هـــدايا لــ"رضا".

فاكر مرة رحت مع أمي لعيد ميلاده، شيلتني الهدية، اديتها لــ"رضا" وأنا مفروس منه..

- كل دي هدايا؟!!

سألت أمي:

- هو أنا مابحتفلش بعيد ميلادي ليه، اشمعنى رضا؟

قالت لي:

- رضا هو الوحيد اللي عند أمه، إنما أنـــا عنـــدي تمانيـــة وبعدين أنا مابعرفش أعمل تورت.

كانت تخلي مراة خالي توريها إزاي بتتعمل التورت..زي لما كانت في كل رمضان تيجي لنا ويعملوا "الشباكية" سوا، لكن الظاهر إن شباكية رمضان، أهم من تورتة عيد الميلاد.

كنت بحب رمضان قوي، وبعرف إنه قرب، أول لما نبتدي ندهن البيت من جوا، وابتدي أشم ريحة البويه، علـــى شـــان رمضان البيت يدِّهن من جوا، وعلى شان العيد الكبير البيـــت يدِّهن من بره، وفي رمضان البيت يتملي حلويـــات، شـــباكية وبقلاوة وبغرير وحريرة وعصاير وطواجن وأكـــل أشـــكال

وأنواع، لكن ببقى زعلان لأن أمي مابتسبنيش أقعد معاهم على الفطار، بتقول:

-الصائمين بس هم اللي بيقعدوا على السفرة.

على شان كده أخويا زكريا كان بيصوم.

حبيت رمضان على شان الشباكية والسحور، وحبيت العيد الصغير على شان الهدوم الجديدة وفلوس العيدية، وعشوراء على شان القشاوش (يعني اللعب)، والكحل اللي كانت بتحطه لنا جدتي "هلالية" في عنينا، بس العيد الكبير ماحبتهوش خالص..لأن الخرفان بعد لما أأكلها وأصاحبها، وناخد على بعض ونلعب سوا، بتدبح!! ذنبها إيه؟

****

لما نجحت في التحضيري، وطلعت سنة أولى ابتدائي، الفصل اختلف عليا تمامًا، لكن حاجة واحدة خلتني أحبه من أول يوم، إن شبابيكه لسه بتطل على النخلة الكبيرة اللي مليانة رطب.

أول يوم، اتعرفنا فيه على المدرس الجديد، كان اسمه الأستاذ "الشوربي".. إسم على مسمى، لأنه زي الشربات، عسل، بيضحك ويهزر معانا، ويحكي لنا نكت، بقينا نروح المدرسة كأننا طالعين رحلة، ولو غاب، بنزعل ونتضايق.

في أول يوم، طلب مننا أدوات المدرسة، القـــرآن يتغلـــف بالأصفر، والتلاوة باللون الأزرق، وكراسة الإملاء بـــالأحمر، وكراسة الحساب بالرمادي، وقلم أزرق وقلم أسود وقلم أحمر وأخضر، وسبورة...وإلخ إلخ إلخ.

شنطة المدرسة تقلت صحيح، لكن الألوان الكتيرة اللي فيها خلتني مبسوط بها.

لما كان الصيف بيقرب والجو بيبقى حر، الأستاذ "الشوربي" كان بيبعت "يحيى" ابن حارس المدرسة يجيب لنا المياه الـــساقعة من الثلاجة، لأن بيتهم كان جوا المدرسة.

"يحيى" كان محظوظ، كان آخر واحد يستعد علـــى شـــان يروح المدرسة، لأنه ساكن جوا المدرسة، وأول واحد بيوصـــل بيتهم لما بنخرج من المدرسة، وإحنا كنا محظوظين لأنه كـــان معانا في الصف، لو احتجنا أي حاجة مش موجودة في الفصل، الأستاذ "الشوربي" كان يبعته يجبها لنا من البيت.

أبو "يحيى" حارس المدرسة كان صعب جدًا، بيفتح البـــاب بميعاد، ويقفله بميعاد، ولو حد فينـــا اتـــأخر مابيـــسمحلهوش يدخل، لكن لو حد من المدرسين جه متأخر، يفتح له البـــاب على طول، مرة وصلت متأخر وهو بيقفل الباب، مارضـــيش يدخلني، قلتله:

- لو يجي ابنك كان ساكن بره المدرسة

واتأخر، كنت هتعمل معاه كده؟

قال لي:

- نعم..آه..هعمل معاه كده.

وسابني ومشي.

الأستاذ "الشوربي".. كانت له طريقة في التسميع، مختلفة عن كل المدرسين اللي عرفتهم بعد كده، ماكانش بيسمع لنا واحد واحد، كان يقول لنا:

- اللي حافظ يقوم يقف عند السبورة!

نقف صف واحد، ونسمع كلنا مع بعض في صوت واحد ولحن واحد زي الكورال، واللي مش حافظ كان بيحرك بقه ويتدارى وسطينا، لكن الأستاذ "الشوربي" كان بيطلعه من وسطينا ويقول له:

- سمع لوحدك يا شاطر.

يتكسف الولد ويعترف إنه مش حافظ، الأستاذ الشوربي يقول له:

- اوقف هناك وإدي وجهك للحيطة،

وارفع رجل من على الأرض!

في السنة دي، اللي هي سنة اولى، صاحبي"المهدي زرقيق"، اللي كان بيقعد جنبي على نفس الدكة، تعب.

أبوه أخد له إذن من المدرسة بالغياب، والأستاذ "الشوربي" كلفني أروح له البيت وأخليه ينقل الدروس اللي فاتته، أخدت العنوان من أبوه، وخليت بابا يوصلني بالعربية.

"المهدي" كان ساكن في عمارة، مش بيت مستقل زينا، فتح لي الباب بنفسه، ولقيت وجهه كله منقط أزرق، حبوب طلعت في جسمه، والدكتور طلع له دواء يشربه، ودواء أزرق يتحط على الحبوب دي، مامته رحبت بيا وهو بقى مبسوط إني بزوره في شقتهم.

كانت شقتهم مختلفة خالص عن بيتنا، كان ليها ريحة زي ريحة الزبدة، والأثاث أجنبي، والأنوار كلها مطفية، ماعدا الغرفة اللي كنا قاعدين فيها، وماتسمعش فيها حس خالص، "المهدي" ماكنش له إخوات، خليته ينقل الدروس اللي فاتته، وأنا مروّح، خدت منه كراسته على شان أنقل له الدروس اللي مالحقش ينقلها، بقيت مبسوط إني بساعد صديق ليا، بنقعد أنا

وهو جنب بعض على نفس الدكة، وهو بقى سعيد ومطمئن لأنه أول ما احتاج لصديق لقاني جنبه.

****

صحيح إني دخلت المدرسة الحكومي زيي زي أي طفل حر شريف، لكن اللي علمتني القراية والكتابة والحساب بجد، هي أمي، مش المدرسة، على شان كده كنت شاطر لحد سنة ثالثة، لأن أمي كان معاها الابتدائية بس.

وفي سنة ثالثة، قابلت" توتاوا"، لأنه سقط وأنا نجحت، فاتقابلنا من ثاني في فصل واحد، وفي الاستراحة قلت له:

- فاكر في التحضيري لما غشيت مني

وسألتنا الأستاذة خديجة.. فقلت إنت إني أنا

اللي غشيت منك؟

قال لي:

-آه..إنت اللي غشيت مني وأنا مابكذبش.

ماقدرتش أمسك نفسي، ضربته بُنية وروسية ووقعته على الأرض، ونمت فوقيه وبقيت أضرب فيه، أضرب.." توتاوا" أيامها كان من العيال الصيع اللي بتعرف تتخانق وتثبت، لكن

أنا ماكنش هاممني، كنت حاسس إني باخد حقي بإيدي، العيال في المدرسة بعد الخناقة دي، بقوا يعملوا لي حساب.. ويقولوا إن "علي الزيدي" بيلعب كراتيه.

****

في السنة دي بالذات، اللي هي سنة ثالثة، اتعرفت على" التميمي" واتصاحبت عليه، ولد غلبان قوي وأبوه راجل فقير، ساكن في مكان بعيد عن المدرسة خالص، جنب الوادي.. اسمه (وادي المخنش)، كانت ظروفه صعبة كثير، صحيح أنا ماشفتش بيتهم، لكن كان باين من جزمته المتقطعة وهدومه المهلهلة وكتب المدرسة القديمة اللي بيشلها في شنطة الكيس، بدل شنطة المدرسة زينا، ومع ذلك كان ولد بكرامته وشجاع كمان.. وده اللي عجبني فيه، على شان كده، بقينا أصحاب جدًا، وهو كمان قال لي إنه بقى معجب بيا ونفسه يصاحبني من اليوم اللى ضربت فيه " توتاوا".

حكيت لأمي عن صاحبي الجديد "التميمي" وعن ظروفه، قالت لي:

- ابقى خليه ييجي معاك تفطروا

سوا وتتغدوا، لكن أمه تبقى عارفة

على شان ماتقلقش عليه.

"التميمي" بقى يعدي عليا الصبح قبل المدرسة، يفطر معايا ونروح المدرسة سوا، كان بيقول إن فطارنا بيعجبه قوي، مع إن فطارنا كان عادي جدا، خبز مشوية متحمرة مع زيت زيتون، وقهوة بالحليب.

"رضا" ابن خالي.. كان أكبر مني بسنة، لكن أطول مني بثلاث سنين...

على شان كده الهدوم اللي بتصغر عليه، مراة خالي كانت بتغسلها وبتحط لها المعطر الخاص بالهدوم، وتكويها وتطبقها، وتديها لأمي، على شان تلبسها لي.أمي كانت دايمًا تقول لي:

- بص دي كأنها جديدة..كأنها ماتلبستش خالص.

أنا كنت ببقى مبسوط بيها، مش على شان جديدة والكلام ده.. ما أنا عارف إنها "سكند هاند"، أنا كنت ببقى مبسوط على شان ريحة المعطر اللي بتفوح، اللي مراة خالي حطاه في الهدوم.

أمي ماكنتش بتعرف تعمل الحركات دي ليه، وكمان ماكنتش بتسألني، زي ما مراة خالي كانت بتسأل "رضا" كل ما أبات معاه:

- تحب تتغدى إيه النهارده يا رضا..؟

لو سألت أمي..هتقول نفس الجملة:

- مراة خالك عندها ولد واحد، إنما أنا عندي ثمانية.

****

كانت بتيجي أيام في الشتاء، السماء بتقعد كثير مابتمطرش.. الناس والجيران في حتتنا كانوا بيخرجونا إحنا الأطفال أولاً، ويعلمونا إزاي نطلب الغيث ثانيًا، كانوا بيقولوا إن ربنا بيسمع كلام الأطفال لأنهم زي الملايكة، كان أول مرة أبتدي أسمع كلام عن ربنا وعن الملايكة بتوعه، كنا بنقول وإحنا بنطلب الغيث في صوت واحد ولحن واحد:

- غيثك غيثك يا الله، والشتاء إن شاء الله

والسبولة عطشانة، الله يسقيها مولانا

والزرع وصل حده، الله يسقيها من خلقه

وا شتاء تا تا تا تا والعينين داحراتا......

وفعلاً كانت المطرة بتترل علينا، كنا بنفرح ونجري على بيوتنا.. والبنات كانت تزغرد.

وفي يوم.. وإحنا في المدرسة، السما مطرت جامد، كان لازم صاحبي "التميمي" يروح معايا البيت، أولا: على شان بيتنا

كان قريب من المدرسة، وثانيًا: على شـــان (وادي المحـــنش) بيفيض، وبكده هيبقى صعب على صاحبي "التميمي" إنه يعدي الوادي و يوصل لبيتهم. فضلت طول فترة الابتدائي بـــستخدم أولاً وثانيًا بس، لغاية لما وصلت الإعدادي عرفـــت إني كـــان ممكن أستخدم ثالثًا ورابعًا وخامسًا...لكن للأسف ماحـــدش نبهني!!

المهم يوميها، أمي بعـــد مـــا حطـــت لنـــا الأكـــل أنـــا وصاحبي"التميمي"، ندهت لي، وطلعت من الدولاب حاجات من هدومي، كان فيها حاجات من هدوم أخويـــا "زكريـــا"، وحاجات من هدوم "رضا" ابن خالي، لكن من غير المعطـــر، وقالت لي إني ممكن أديها لصاحبي "التميمي"، فرحت جـــدًا، وصاحبي "التميمي" بقى مبسوط قوي بالهدوم، قلـــت لـــه في حس بالي:

- أومال لو كانت بريحة المعطر، كنت عملت إيه؟

****

مرة وأنا في ثالثة ابتدائي، أمي جابت لي بدلة صغرت على "رضا"، لونها بني فاتح، قستها فجت على قدي بالظبط، رحت بيها الساعات الإضافي اللي بتديها لنا مُدرِّســـة الفرنـــساوي" لطيفة"، على شان تشوفني بالبدلة، كنت معجب بيها جـــدًا!!

مش قصدي على البدلة، قصدي على المُدرِّسة بتاعتي "لطيفة"، كان عندها شعر أسود مسبسب طويل لغاية السنص كده.. حاولت كثير أوصلها حقيقة مشاعري ناحيتها، لكن هي كانت على طول مش واخدة بالها، أو حاسة.. بس إيه.. مطنشة.

لغاية لما مرة شفت خطيبها، كان جاي ياخدها من الساعات الإضافي، كرهته من أول نظرة، كان بيشاور لها من بره الفصل إنه مستنيها لما تخلّص. بصتله هي بعينيها إنه.. تمام! ورجعت بصت لينا ثاني على شان تكمّل الدرس، طلبت مني أكرر الكلام وراها، بصيت في عينها وسكت..!! وقلتلها في حس بالي:

- د أنا أحلى منه بكثير، إنتي إيه اللي عاجبك فيه؟

من يومها، قررت إني أكتم مشاعري جوايا، واخترت إني أحبها من بعيد..حب من طرف واحد زي ما بنسميه النهارده.

ومرة وإحنا طالعين من المدرسة في الصف، صاحبي" التميمي" قال لي:

-شفت النهاردة المدرسة لطيفة كانت لابسة إزاي؟

دي زي لهطة القشطة..

ما استحملتش الكلمة، وطخ بالقلم على وجهه.

كانت أول مرة إيدي تتمد على أعز صديق ليا، لكن مش أول مرة اثنين رجالة يخسروا بعض على شان واحدة ست.

"التميمي" أخد القلم من هنا وبص لي بحرقة وقال لي:

- إيه ده يا علي!! إنت بتضربني بالقلم؟

قلت له:

- ما إنت اللي غلطت في المُدرِّسة بتاعتنا، المفروض إننا نحترمها، مش نكلم عنها وحش.

الولد بصراحة طلع جدع وماردش عليا، عمل حساب للعشرة والعيش والملح، فضلنا متخاصمين ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع رحت له وطلبت منه إنه يسامحني، قلت له:

- غصب عني.. مش عارف إزاي عملت كده !؟

قال لي:

- أنا عارف إزاي عملت كده، إنت غيرت عليها، إنت بتحب المُدرِّسة لطيفة يا علي.

سكت وماعرفتش أجاوب..!! قلت له:

- يا ريت يفضل الموضوع ده سر بيننا.

ولغاية النهارده، ماحـــدش يعـــرف إني حبيـــت مدرســـة الفرنساوي "لطيفة" في سنة ثالثة ابتدائي، غير أنـــا وصـــاحبي "التميمي"، وحضراتكم طبعًا، لكن لما حبيت "جيمي القويـــة" اللي كانت بتيجي في المسلسل التلفزيوني أيامها، الحتة كلـــها عرفت!! أخويا "زكريا" فـــضحني في الحتـــة كلـــها، بقيـــت مكسوف.. بقيت في نص هدومي.

مش عارف ليه لما بنحب بنخبي؟! ولمـــا النـــاس تعـــرف نتكسف!! هو الحب حاجة غلط؟

****

في اليوم ده طلبت الأستادة "لطيفة" مننا نحفظ "ان بـــويم" بالفرنساوي (محفوظات يعني)، قعدت طـــول الليـــل أحـــاول أحفظ،، إن المحفوظة تدخل دماغي، مافيش، لدرجة إني بقيت بحفظ وأنا بعيط..

أبويا أخد باله، سألني:

- مالك يا علي يا ابني؟

قلت له:

-المحفوظة مش عايزة تتحفظ.

أخدني من إيدي ودخلني غرفته وقال لي:

- هنا هتعرف تركز وهتحفظ بعيد عن الدوشة اللي بره.

قفل عليا الباب، وقعدت أحفظ مرة واثنين وثلاثة، لكن من غير أي فائدة، بكيت وصوّت وضربت بإيدي على الأرض..دخل أبويا تاني وقال لي:

- خلاص من غير عياط، أنا بُكره هخلي أخوك رشدي يروح معاك، ويقول للمُدرّسة إنك حاولت تحفظ بس محتاج وقت كمان.

صوّت أكتر وقلت له:

- لأأ!! رشدي لا..!! أنا لازم أحفظ الليلة..

أبويا مش حاسس بيا، مش عارف إني باحفظ على شان خاطر الأستاذة "لطيفة"،على شان بحب الأستاذة "لطيفة"، ولازم هي كمان تحبني، وبعدين لا يمكن أوافق إن أخويا رشدي، يقابل المُدرّسة بتاعتي "لطيفة".

والصبح لما سمعت الأستاذة "لطيفة" المحفوظة من العيال، كلهم كانوا بيتلجلجوا، ولما الدور جه عليا سمعتها لها زي المياه..!! كان أول مرة أشوف نظرة إعجاب في عينيها، وإنها كان هاين عليها تاخدني بالحضن وتبوسني، لولا إنها مخطوبة، كل ده كان باين في عينيها، وإنها كمان مش مبسوطة مع خطيبها، لكن مضطرة تستحمله على شان أهلها ضاغطين عليها، سمعت صوتها جوا بيقول لي:

- ماعلش يا علي، ماعلش يا حبيبي، غصب عني.

وفجأة قالت لي بعلو صوتها:

- هايل يا علي برافو عليك tres bien ali bravo

****

أمي كانت ست بيت بجد، بتطبخ وتغسل وتمسح وتكوي، وكمان تروح سوق "سنية الرمل" تشتري خضار، كانت بتاخدني معاها على شان أساعدها في الشيلة، كان بيبقى يوم ثقيل وغلس، لولا إني باخد منها واحد درهم كل مرة أروح معاها السوق، اللي كان بيخنقني مش الشيلة الثقيلة، اللى كان بيخنقني بجد، إن أمي كل ما تقابل واحدة من صاحباتها في "سنية الرمل"، يقفوا يتكلموا ويسلموا ويحكوا بالساعات، مش واخدين بالهم إن فيه بني آدم محترم، واقف مستني بيتحرق تحت الشمس.

وكل أسبوعين، كانت أمي عندها يوم اسمه "يوم التخميل"، البيت كله بيتقلب ويتمسح ويتنضف من كل ركن وكل حتة صغيرة فيه، اليوم ده.. كان بيبقى ممتع بالنسبة لي، لأني بكتشف أماكن جديدة ممكن أختفي فيها..مش عارف ليه كنت بحب أختفي أكتر من إني أظهر؟

"عشوشة" هي الست اللي بتساعد أمي في شـــغل البيــت، بتبات عندنا، ولها بنت أصغر مني اسمها "سناء".. بكرهها كره العمى..!! وبضربها على طول بسبب أو من غير سبب، مـــن غير ما أعرف ليه، ماكنتش أطيق أشوف سحنتها.

وفي مرة، وفي يوم التخميل، والبيت مقلوب، كنت بلعـــب بلعبة في إيدي، كانت قطة خضرة ماسكة كرة حمرة صـــغيرة بين إيديها.. لما كبرت شوية، عرفت إنهم كانوا قاصدين بالكرة الحمرة، شلّة صوف، بس ماكنش باين خـــالص إنهـــا شـــلّة صوف!!

"سناء" بنت "عشوشة" كانت قاعدة عند الـــشباك الكـــبير اللي بيطل على شجرة التين الخضرة الكبيرة اللي في الجنينـــة، شجرة التين اللي خطفت مني في يوم من الأيام، فردة جـــزمتي الصغيرة زمان، اللي كنت بحبها وكنت مسميها "بچيك "، حد رمى البچيك بتاعي من فوق السطح، ووقعت على الشجرة من فوق، وماحدش عرف يوصل لها ويرجعها لي ثاني، كانت لمـــا بتوحشني، أقعد عند الشباك الكبير اللي بيطل علـــى الـــشجرة الخضرة، وأبص عليها وأقول لها في حس بالي:

- بچيك..!! حبيبتي..تعالي..

كنت مستني أي حد يطلع الشجرة على شان يجبها لي، لغاية ما جه يوم بصيت على الشجرة، مالقتش البچيك بتاعي!! يوميها عرفت إن ماكنش المفروض أستنى أي حد، وإن أنا اللي كان لازم أطلع الشجرة الخضرة الكبيرة بنفسي، وأجيب البچيك بتاعي..أكيد ماكنتش هقدر، بس كان لازم أحاول.

يومها من غير سبب، حسيت إني عايز ألعب مع "سناء" بنت "عشوشة"، وإني مش عايز أضربها، قربت منها واديتها لعبتي، القطة الخضرة اللي ماسكة شلّة الصوف، واديتها إشارة مني إن إحنا ممكن نلعب سوا، أمها وأمي لاحظوا ده، وفرحوا..أمي قالت لي:

- أيوه كده يا علي يا ابني، خليك كويس واطلعوا فوق السطح..العبوا سوا، لكن اوعى تضربها، دي زي اختك الصغيرة.

ماحبيتش فكرة إنها زي أختي الصغيرة، لكن حبيت فكرة فوق السطح، طلعنا السطح أنا و"سناء" بنت "عشوشة" ودخلنا غرفة "طارق" و"سمير"، إخواتي اللي أكبر مني، إخواتي الاتنين اللي طول اليوم متخانقين، وفي الليل ينامو في نفس الغرفة وعلى نفس السرير، قفلت الباب علينا وقعدنا أنا و"سناء" بنت "عشوشة" على السرير، حسيت إني عايز ابوسها، حضنتها وبقيت ببوس فيها، وأحضن وأبوس، لكن

كنت حاسس إن فيه حاجة ثانية غير البوس عايز أعملها، بس مش عارف هي إيه!!

بقيت أبص لها وأقول لها:

- اعمل فيكي ايه.. قولي لي أعمل فيكي إيه؟

كانت هي ما بتقولش حاجة غير إنها بصالي، أرجع تاني أبوسها وأحضن، لكن أكيد فيه حاجة ثانية غير البوس ممكن أعملها.. بس هي إيه؟... مش عارف!

وفجأة سمعت صوت "سمير" أخويا بينادي عليا، اتخضيت ومابقتش عارف أعمل إيه، سمير أخويا كان بيبقى عايزني على شان نلعب مع ولاد الحتة في الجنان بتاعنا، أرض كبيرة كلها شجر وغرس حوالين البيت كان اسمها "جنان دودوح " على اسم جدي.

فتح "سمير" علينا الباب، ولقاني مخضوض، ومربوك..مش عارف أنطق، قال لي:

-آه....!! إنت كنت بتعمل حاجة غلط!إنت كنت بتبوسها.

يومها اترجيته إنه ميجبش سيرة لأمي..وافق، لكن بشرط إنه ياخد مني مصروفي ٣٠ سنتي اللي بناخدها كل يوم من"الحساني" المحاسب..اللي عندنا في المحل.

جدي "دودوح"، كان عامل لنا مصروف ٣٠ سنتي كل يوم، ناخدها من "الحساني" المحاسب اللي بيشتغل عندنا في المحل، محل التخزين اللي بنخزن فيه قنينات الغاز، اللي عمي "امحمد"، بيجبها بعربية النقل الكبيرة الصفرا، من الشركة الرئيسية في مدينة طنجة، شركة "كونبين غاز"، والعربيات الزرقا بتاعتنا، توزعها بعد كده، على كل المحلات في المدينة بتاعتنا "تطوان"، وكمان موتوسكل بثلاث عجلات، اللي "بوعزة" بيشتغل عليه ويوزع القنينات في الحواري الضيقة، اللي العربيات الكبيرة ماتعرفش تدخلها.

كان كل يوم نقف طابور أنا وإخواتي، وولاد عمي "امحمد"، "ياسين" و"نوفل"، ناخد ٣٠ سنتي من "الحساني" المحاسب ونطير على عمو" قروعة" نشتري منه حلويات" سبتة".

بعد حكاية بنت "عشوشة"، "سمير" أخويا بقى يقف في الطابور بعدي على طول، آخد أنا ٣٠ سنتي من هنا وألف وأديها له من هنا، على شان أستر فضيحتي.

وفي يوم عملنا اجتماع مع جدي "دودوح"، على شان يزود لنا المصروف، وافق على طول وزوده ١٠٠%، بقى

مصروفنا اليومي ٦٠ سنتي بدل ٣٠، فرحت بالعلاوة، وقلت لسمير:

- إنت تاخد ٣٠ وتخليلي ٣٠..

رفض وقال لي:

- أنا متفق معاك على مصروفك مهما زاد ومهما نقص.

نظام الاستبداد يعني، وافقت غصب عني، على شان أستر الفضيحة.

****

وكل يوم أحد، لازم نروح الحمام (الحمام المغربي)، إخواتي الكبار بيروحوا لوحدهم، وأنا بروح مع ماما. كانوا الستات بيبقوا جايين معاهم جرادل بلاستيك كبيرة، وفوط وغسول..وصابون بلدي وحنة وحاجات تانية كثيرة، كنت بكره الكيس (الليفة المغربي)، بتبقى خشنة على جلدي، بتوجعني جامد، لكن أمي بتصر، وتقول لي:

- لازم نشيل الوسخ اللي على جسمك.

يوم الحمام ده كان بيبقى عذاب بالنسبة لي، مش زي إخواتي "طارق" و"سمير"، بييجوا من الحمام مبسوطين، ويحكو

لنا على اللي عملوه في الحمام، كانو بيدهنوا الأرض صـــابون، ويقعدوا يتزحلقوا على بطنهم، كنت بقول مع نفسي يا بختهم.

لغاية لما مرة أمي اخدتني معاها الحمام، حمام" الروبيو"، حمام حتتنا "التوتة"، كان اسم حتتنا على اسم شجرة التوتة، اللي في الجنان بتاعنا "جنان دودوح".

(الجلاسة) هي الست الكبيرة اللي بتبقى قاعـــدة بـــره في الحمام تقبض الفلوس، مارضيتش تخليني أدخل جوا مع أمـــي، قالت لها:

– الولد بقى كبير، بيعرف كل حاجة،ما يـــنفعش يـــدخل معاك.

أمي قالت لها:

– يعني أرجع لغاية البيت،وأخليه هناك وأرجع ثاني؟

الولد لسه صغير مايعرفش،

إنتي بس اللي متهيأ لك.

وكلمة من هنا وكلمة من هناك، (الجلاسة) وافقت أخيرًا، وقالت لأمي:

– المرة دي هوافق، لكن المرة الجاية مش هخليـــه يـــدخل معاكي.

ودخلت مع أمي جـــوا، وســـبتها في الأوضـــة بتاعتـــها بتستحمى، ورحت أتفسح في الحمام، والستات تصرخ وتقول:

- تبع مين الولد ده؟ حد يطلعه بره.

لغاية لما جات أمي، وأخدتني معاها أوضتها جوا الحمـــام، وقالت لي:

-اقعد هنا وماتتحركش.

من يومها بقيت مبسوط، لأني بروح الحمام مـــع إخـــواتي "سمير" و"طارق"، ندهن الأرض صابون ونتزحلق على بطننا.

****

لو سألتني عن الرعب، يبقى الأستاذة "ربيعة"، أستاذة اللغة العربية في سنة ثانية ابتدائي، كانت ست صعبة، متشالة مـــن قلبها الرحمة، كانت دايمًا تتأخر لكن عمرها ماتغيب.

ساحة المدرسة طوابير، والعلم بيرفرف من غير تحية، وكـــل صف معاه المُدرِّسة أو المُدرِّس بتاعه بيتحركوا على فـــصلهم، لغاية لما الساحة فضيت، مافيش غير صفنا واقفـــين مـــستنيين الأستاذة "ربيعة"، نبص ناحية سور المدرسة المتخرم على شكل مربعات على شان نتملى بطلعتها البهية، وإحنا بندعي:

- يا رب ماتيجي النهارده.

كنا نبص الأول على لون الجلابة اللي هتبقـى لبـساها، الأستاذة "ربيعة"، كان عندها چلابتين بلونين، خـضرة يعـني هدنة، وحمرة يعني جحيم، وغالبًا ما كانت بتظهـر بالچلابـة الحمرا.

مسكت الولد "كريم" مرة، وإدت له علقة بالفلقـة، قعـد يصوَّت ويبكي ويصرخ ويقول لنا:

- إقروا لي الشهادة..أنا بموت.

وهي عمالة تضرب، وتزود، وهو يقول:

- أشهد ألاّ إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله،

الله أكبر..الله أكبر..

فيه عيال كانت بتضحك، لكن أنا لأ..! كنت حاسس بيه، وقرأت له الشهادة، لأني مرة وأنا لسه في سنة أولى مع الأستاذ "الشوربي"، كنا بنلعب في الاستراحة.. العيال زقوني ووقعـت على راسي من ورا، حسيت بإحساس، كأن روحي بتطلـع، كأن حاجة باردة بتخرج من جسمي، يومها اتشهدت وقلت:

أشهد ألاّ إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

لكن ما متش..!!

الأستاذ "الشوربي" ماكنش بيضرب، كنا بنحفظ معه ونذاكر، من غير خوف.

وفي مرة.. مع الأستاذة "ربيعة" كان عندنا حصة النشاط العلمي، طلبت مننا نجيب اللمبة الصغيرة خالص، مع حتت سلك وبطارية.. لكن من النوع المسطح.

لقيت اللمبة ولقيت السلك، لكن مالقيتش البطارية، دوّرت عليها عند كل المحلات اللي أعرفها واللي ما أعرفهاش، لكن للأسف كل البطاريات اللي لقيتها أسطوانية، يعني ماتنفعش، الأستاذة "ربيعة" كلمتها واحدة:

- مسطحة يعني مسطحة.. ويا ويله يا ويله ويا سواد ليله، اللي يجيب لي بطارية أسطوانية.

ده كان كلامها في الفصل.

_ صدقني الأسطوانية مش هتحل المشكلة، بل بالعكس هتزيد من حجم المشكلة.

_ إحنا يهمنا إن اللمبة الصغيرة تنور، وسواء أسطوانية أو مسطحة.. اللمبة هتنور. حتى شوف..اهوه، نوّرت!!

_ يمكن والله أعلم إن التسجيل اللي عندها في البيت، مابيشتغلش إلا على البطارية المسطحة.

وده كان كلامي مع عم "قروعة" وهو بيحـــاول يقـــنعني إني أشتري منه البطارية الأسطوانية، وهو بيجرها لي.

كنا زي العادة واقفين في الصف مستنيين طلعتها البهيـــة، كنت برتعش، النهارده هاكل علقة ماحصلتش علـــى شـــان البطارية المسطحة، ريحة الثوم معبقة الجو، العيال كانوا بيدهنوا الثوم في إديهم ورجليهم على شان يستحملوا الوجع، بيقولـــوا إن الثوم بيخليهم مايحسوش بالضرب، يعني من الآخر النهارده مجزرة.

وفجأة ظهر أخويا "زكريا"، خارج في الصف مع أصـــحابه مروحين، كان ساعتها في سنة رابعـــة، وكـــانوا بيخلـــصوا حصصهم قبلنا، ندهت عليه، وفهمته إني واقع في مشكلة، وإنه لازم يتصرف ويجيب لي البطارية المسطحة، أخويا "زكريا" أخد مني الفلوس حق البطارية، وجري زي البطل، عمري ماشفت أخويا "زكريا" بيجري بالسرعة اللي جـــري بيهـــا يومهـــا، وفضلت في الصف مستني.

ببص ناحية السور المتخرم، وبشم في ريحة الثـــوم، وفجـــاة ظهرت جلابة حمرا بتمشي على كعب عالي!! كانت الأستاذة "ربيعة".. قلبي اتخطف.. ووجهى اصفر.. وحسيت إن نهـــايتي قربت، الصورة بقت سودا.. مش باين فيها غـــير الأســـتاذة

"ربيعة" جاية عليا، وعنيها بتطق شرار، والجلابة الحمرا مولعة نار، لولا إن البطل ظهر تـــاني في الـــصورة، كـــان بيجـــري ويجري.. لغاية ما وصل، وناولني البطارية المسطحة وقال لى:

- وصلت لغاية" باب العقلة".

ومشي تاني قبل ما الأستاذة "ربيعة" تلاحظ. صـــحيح إن "باب العقلة" النهارده قريبة من مدرسة الأزهار، لكن أيامهـــا كانت بعيدة جدًا، أنا كنت عارف إن أخويا "زكريا" بطـــل، لكن ماكنتش أعرف إنه بيحبني كده وبيخاف عليا.

****

عم "قروعة" كان دائمًا ينام في المحل وهو قاعـــد، كـــانوا العيال يشتروا منه البمب ويرموه عليه جوا المحـــل، والبمـــب يفرقع..فيتخض ويقوم يشتم، ولما يرجعوا يشتروا منه البمـــب تاني، يبيع لهم..وهو متأكد إنهم هيعملوها فيه تاني، لأن لو مـــا باعلهمش هيشتروه من محل ثاني، وبرضه هيرموه عليـــه.. وفي أوقات الصلاة كل المحلات اللي في حتتنـــا تقفـــل، إلا عـــم "قروعة" كان بيفضل فاتح، لأنه ماكنش بيصلي.

****

ولو سألتني عن الطيبة، تبقى "ربيعة " مراة عمي "اشـــعيب" الأولى، اللي كانت ساكنة معاه في "جبل الحبيب"، قرية جبلية

في نواحي تطوان، هناك كانت "ربيعة" مراة عمي ممكن تعلمك معنى الطيبة، كل اللي بتعمله إنها بتقعد منتظرانا دائمًا على شان نزورها،كانت الفرحة ما بتسعهاش وهي شيفانا نـــازلين مـــن عربية بابا، بتحضن أمي وتبوسها جامد، وتسلم علينا وتشيلني أنا من على الأرض وتاخدني في حضنها، كانت علـــى طـــول تقول لنا:

- مرحبًا بكم..

وكان عمي "اشعيب" على طول يقول لنا:

- مرحبا باللي جاء وجاب.

عمي "اشعيب" ساعتها كان موظف في قيادة جبل الحبيب، حكومة يعني، كل أهل القرية عاملين له ألف حساب، وهـــو مش عامل حساب لحد غير للقائد، الريس بتاعهم يعني.

عمي "اشعيب" له حوش كبير، مربي فيه بقـــرتين ومـــاعز وفراخ كثيرة، كانت "ربيعة" مراته بتدبح لنا منـــها، وكمـــان مابترفضليش طلب، بتملا لي طشط المياه وتحطني فيه وتـــديني خرطوم المياه على شان ألعب وأبلبط.

مرة طلبت منها إنها تملا لي الطشط زي كل مـــرة، أمـــي منعتني، رحت عملهم على روحي بالقصد، وقلت لها:

- شفتي لازم أستحمى.

قامت "ربيعة" وملأت لي الطشط، وقعدتني فيه أبلبط.

ومرة "ربيعة" حلقت زلبطة لإخواتي كلهم، على شان الحر، وأنا قالت لي:

- إنت شعرك حلو، حرام نحلقه زلبطة.

"ربيعة" مراة عمي "اشعيب" ماكنتش بتخلف، لكن كانت بتربي بنت صغيرة قدي اسمها "مريم"، عمي "اشعيب" على طول يشتم البنت دي ويضربها من غير سبب، و"ربيعة" ماتقدرش تقول حاجة، كل اللي بتعمله، إنها تطبطب على البنت وتقول لها:

- بس ما علش..

الغريب إن "مريم" دي مابتعيطش، وكمان مابتتكلمش، كانت بتصعب عليا، لكن مابسألش عمي "اشعيب"، إنت بتضربها ليه؟! لأني كمان بضرب "سناء" بنت "عشوشة" من غير ليه، فهمت ساعتها إن لازم يبقى فيه حد إحنا نضربه.

لغاية لما بقينا نروح جبل الحبيب لكن مابنلاقيش "ربيعة"، عرفت بعدين إن عمي "اشعيب" ساب "ربيعة"، وإن "ربيعة" راحت بس ماحدش يعرف هي فين، كان نفسي أعرف هي

راحت فين على شان أشوفها، أختي "ألطاف" قالت إنها قابلتها مرة عند "باب انوادر"، وإنها بتسلم علينا كلنا.

وأختي "سلوى" قالت إنها مرة، لما كانت لسه مع عمي "اشعيب" في جبل الحبيب، سحبتها من إيديها وهي مبسوطة، وقالت لها:

- تعالي لما أوريكي حاجة حلوة.

دخلتها غرفة النوم وفتحت الدرج وطلعت ورقة وقالت لها:

- أنا وعمك اشعيب متجوزين رسمي والعقد أهو..حتى شوفي.

لما "سلوى" أختي بصت في العقد، لقيته عقد جواز ماما وبابا، ماقدرتش تقول لها على الحقيقة، "ربيعة" مراة عمي "اشعيب" مابتعرفش تقرا.

الرعب كان اسمه الأستاذة "ربيعة"، والطيبة كان اسمها "ربيعة" وبس.

****

أبويا كان مدخن درجة أولى، كان ممكن يخلص تلات علب سجاير في اليوم، وأمي كانت ست شيك قوي، على الموضة زي ما بيقولوا، مرات كتيرة، كانوا يخرجوا يسهروا بره،

ساعات ياخدوني معاهم، وكثير ماكنوش يرضوا.. الغريب إني كنت بسمع الكلام وبقعد مع إخواتي، مع إني ببقى مبسوط في الخروجة معاهم.

وفجأة حصل تغيير، أبويا بطل السجاير وابتدا يمضغ لبان، كان بيقول:

- اللبان هيساعدني إني أبطَّل السجاير.

وابتدا كمان يلبس اللبس التقليدي المغربي، بـــدل البِـــدَل الشيك اللي لسه بيلبسها، چلابة غالبًا بيضا وبُلغة كتير صـــفرا وطربوش أحمر دائمًا، وكل يوم يقرا القرآن، وأمي بقت بتحط طرحة على راسها وتلبس چلابات وتصلي، وبابا هـــو اللـــي بيعلمها الصلاة.. ولما بتروح المناسبات مابتحطش البواريك ولا أحمر شفايف، وبعد ما يخلصوا الصلاة هى وبابا، تبوس إيده!

ابتديت أسمع في البيت كلام عن ربنا، وعرفت إن السجاير والبواريك وأحمر الشفايف، حاجات حرام، سألت أمي:

- يعني إيه حرام؟

قالت لي:

-يعني ربنا مابيحبش كده.

-هو مين ربنا؟

-ربنا هو اللي خلقنا.

يوم بعد يوم بقيت أعرف حاجات كتيرة عن ربنـــا، إنـــه موجود في السما، وإن هو اللي خلقنا، وإن عنده الجنة وعنـــده النار، حبيت ربنا على شان بيديلنا كل حاجة إحنا عايزينـــها، بس كمان بقيت أخاف من ربنا على شان عنده النار.

****

مرة كنت راكب في العربية مع بابا، كان بيفسحني في قلب تطوان، مدينتي اللي بقيت خلاص.. أعرفها حتة حتة وشـــارع شارع، حتى الوجوه مابقتش غريبة عليا، وعند شارع "محمـــد الخامس"، وبالظبط عند النافورة اللي بتطلع المياه بالألوان، أحمر وأخضر وأصفر، وكمان بصوت الكمان، سألت بابا:

- هي الفرقة قاعدة جوه النافورة؟!

ضحك وقال لي:

- لأ، ده جهاز تسجيل، دي مزيكة "عبد الصادق شقارة".

كان دايمًا عندي إحساس إن بابا عارف كل حاجة -كانت مزيكا أندلسية- ماكنتش مهتم بأنواع المزيكا أيامها، لكن اللي شدني فعلاً إن جهاز التسجيل لو اتبل، أكيد هيبـــوظ،، بـــس أكيد اللي حاطه جوا النافورة، كان عامل حـــسابه، فكـــرت شوية وبعدين سألت بابا تاني:

- هو مين اللي خلق ربنا؟

سكت المرة دي ومن غير مايضحك بص لي!!.. حسيت إنه مش عارف يجاوب، كان أول مرة أحس إن بابا مش ضروري يعرف كل حاجة، قال لي:

ــ إحنا خلقنا ربنا.. لكن ربنا ماحدش خلقه.

وبعدين، حرام إن إحنا نفكر مين اللي خلق ربنا.

حرام تاني!! كلمة بقيت أعرفها خلاص، يعني سجاير وبواريك وأحمر شفايف، وفوقهم إننا مانفكرش.. مين اللي خلق ربنا.

****

غرفة النوم ضلمة، وأنا نايم في سريري الصغير اللي على شكل قفص، وصوت أخويا "سمير" واصل لوداني، مع أصحابه بره في الجنان بتاعنا بيطبل ويغني، والليلة ليلة رمضان، وماما وبابا على سريرهم نايمين، وماما بتقول لي:

- اسمع! أخوك سمير بيطبل ويغني.

وبابا قال لها:

- سمير ده شكله هيطلع، مسحراتي.

وهما مش واخدين بالهم إن أنا عَمَّال آكل في مرتبة السفنج بتاعتي، المرتبة اللي أنا نايم عليها، لأني بحب الـــسفنج، كنـــت مستمتع بأكل السفنج، وأنا بسمع "سمير" أخويا بيغني ويقول:

ناحـــلم ناحـــلم ناحـــلم ناحـــلـــم بالچلبانة

اللي قال الحـــب حـــرام يدخـــل لجـــهنمـــة

كانت أول أغنية أحفظها، وأفتكرها كل ما يجي رمـــضان، أمي وأبويا قالوا لي، إنهم لقوني الصبح نايم على الأرض، وبطني منفوخة.. الظاهر إني أكلت كتير..أخدوني المستشفى والطبيب قال لهم:

- لو كنتوا اتأخرتوا كمان شوية، الولد كان هيروح منكم.

مش فاكر حكاية إني كنت هموت، ومش فـــاكر حكايـــة الطبيب اللي أنقذني، بس فاكر كويس إني ليلتها كنت باكل في السفنج بتاعي.

وفضل موضوع أكل السفنج من الهوايات المفضلة عنـــدي، حتى لما كبرت ودخلت الابتدائي.

فاكر يوم كنت زهقان، بلف حوالين البيت لوحدي، مش لاقي حد ألعب معاه، "ياسين" و"نوفل" ولاد عمي، راحو مع مامتهم، عند جدتهم "آمنة" اللي ساكنة في "الباريو"، حتة كده

بعيدة فوق خالص، وأخويا "زكريا" جوا البيت بيتغدى، وأمي بتنده عليا على شان آكل، رديت وقلت لها:

– مش جعان.

وفجأة عند الباب الورّاني اللـــي بيوصـــل لبيـــت جـــدي "دودوح"، لقيت مرتبة سفنج كبيرة صفرا ملظلظـــة، طلعتـــها عمتي "رحمة"، على شان تتهوى، وتاخد شمس، عينيا برّقت.. ووجهي ابتسم.. والفرحة مساعتنيش، ومرة واحدة نطيت على المرتبة وبقيت آكل آكل لغاية ما شبعت.. كان طعمها لذيذ، ماهوش حل، عمتي "رحمة" لما لقت المرتبة كلـــها معـــضوضة، عرفت إنه أنا، لأن مافيش حد في العائلة بياكل سفنج غـــيري، "ياسين" ابن عمي بياكل نشارة خشب، و"نوفل" أخوه بياكل الحصى الصغير المترب، بقوا بعد كده بيعملوا حـــسابهم هـــي وعمتي "راضية"، كل ما يطلعوا مرتبة سفنج بره، لازم واحدة فيهم تقعد تحرس، ويبدلوا الوردية مع بعض، لغاية لما يـــدخلوا المرتبة آخر النهار، سالمة غانمة.

وكل صبح أطلب من ماما فلوس على شان أشتري مساحة سبورة جديدة.. كانت تقول لي:

– إنت مش لسه شاريها امبارح، أكلتها خلاص.

تديني الخمسة سنتي وتقول لي:

- لو أكلتها تاني مش هديك.

أروح أنا بالخمسة سنتي عند عم "قروعة" أناوله وأقول له:

- عايز مساحة سبورة.

يقول لي:

- عايزها لون إيه؟

أفضل أبص للألوان الكثيرة الجميلة، وأفكر مع نفسي:

- تاكل إيه النهاردة ياعلي؟... تاكل ايه؟...

المسَّاحة اللي أكلتها امبارح، كان لونها أخضر، يبقى النهارده آخد اللون الوردي.

آخد القرار وأشاور على اللون وأقول له:

- هاتلي اللون الوردي لوسمحت،

ولا أقول لك، هات الصفرا أحسن.

في التحضيري وأولى ابتدائي، كان عندنا في الفصل مساحات سفنج مربعة كبيرة، كنت بحب أقوم أمسح السبورة ولو ماحدش أخد باله، كنت باخدها.

المدرسين عندهم كرتونة مليانة مسَّاحات.. يا بختهم، لكن في سنة ثانية ابتدائي غيروا النظام، جابوا مسَّاحات جديدة، حتة خشبة مربعة ملزوق عليها حتة موكيت، زعلت..وكمان بقى عندنا المديرة "للا فاطمة" بدل المدير"السي الشنتوف"، عرفت إنه مات، وجاب مراته بداله.

زعلت.. على المسَّاحات لأني مابحبش النوع الخشبي.

"ياسين" ابن عمي ممكن، لكن هيحتاج إنه يبردها ويعملها نشارة خشب.

****

وجبنا الفيديو، رشيدة بنت "السي المسطاسي" جارنا، اللي عايشة في بلجيكا، بعتت لنا فيديو من هناك، لكن الفيديو ده، كان مختلف عن كل الفيديوهات، اللي كانت موجودة عند الناس ساعتها، لأن الشرايط بتاعته كانت بتشتغل على الوجهين.. زي شرايط الكاسيت، على شان تستوعب عدد ساعات كتيرة، كانت مدة الشريط ٨ ساعات، وبكده كان صعب نشوف أفلام تانية غير الأفلام اللي بعتتها لنا "رشيدة المسطاسي" مع الفيديو. شفنا فيلم "الرسالة" وشفنا "عمر المختار"، وحفظت معظم المشاهد ومعظم الحوار، وبقيت أمثل للعيال في حتتنا المشاهد اللي بحبها، وحبيت اسمي.. لأن اسم الولد الصغير اللي بياخد نضارة "عمر المختار" لما بيتشنق في آخر الفيلم، كان اسمه "علي"، على اسمي.

ولما كنا بنحارب ولاد الحتة اللي جنب حتتنا، كنا بنتصف زي المسلمين في فيلم الرسالة، وأخويا "سمير" شـــايل ســـيفه الخشبي زي "حمزة"، بيقول لنا:

- استعدوا..الى الامام..تقدموا..

فننطلق جري.. ونقول:

الله أكبر..الله أكبر..

وأخويا "سمير" يعمل لنا الموسيقى التصويرية لفيلم "الرسالة" بيقه..كنا بنحس فعلا إننا هننتصر..

كان صعب إننا نشوف أفلام تانية.. لولا إن أخويا "خالد" كان شاطر في الإلكترونيات، فكان يـــروح عنـــد أصـــحابه، ويسجل لنا أفلام تانية من شرايط (ف ش س) وينقلها علـــى الشرايط بتاعتنا (جروندي ٢٠٠٠)، الظاهر إن الشركة اللـــي عملت الفيديو ده، كانت بتأمل إنه ينتـــشر في ســـنة ٢٠٠٠، ماكنتش تعرف إنه هيبقى في (س د) و(د ف د). وبكده شفت أفلام "شارلي شابلن" وأفلام "لوريل وهاردي" وأفلام كـــتيرة قوي.

أخويا "خالد"، زيادة على إنه كان شاطر في الإلكترونيات، وغاوي يفتح كل التسجيلات والساعات اللي عندنا في البيت،

كان غاوي كمان يروح سينما، كان ياخدني معـاه لـسينما "اسبانيول" اللي في قلب المدينة، نـشوف أفـلام الكاراتيـه، والأفلام الهندي، لكن أنا بنام منه، ضلمة الـسينما بتـريحني، وتخليني أنام، وفي آخرالفيلم، يولعوا النور، وأخويـا "خالـد" يصحيني ويقول لي:

- لو نمت تاني، مش هجيبك معايا.

أوعده إن المرة الجايه مش هنام، وأقاوم النوم في المرة الجايه على شان مايزعلش مني، لكن من غير فايدة، بنام منـه تـاني. حبيت السينما من أخويا "خالد"، وعرفت إزاي أعدّي الشارع من عمتي "رشيدة"، مسكتني من إيدي وقالت لي:

- نبص يمين ونبص شمال، ولما الشارع

يفضى، نعدي.

وعدينا الشارع مع بعض، ومن يومها بقيت أعدي الشارع لوحدي، واتعلمت آكل من غير ما أعمل صوت من "رشيدة" مراة خالي، مامة "رضا"، كنت بايت عندهم، وكنـا بناكـل فقالت لي:

- لما نمضغ، نقفل بقنا، على شان

مانطلعش صوت، زي كده.

وورتني إزاي، ومن ساعتها بقيت أعمل زيها. وبكده، بقيت كل ما أقابل واحدة اسمها "رشيدة"، أعرف إنها هتكون.. يا إما زي "رشيدة المسطاسي" أو زي "رشيدة" عمتي أو زي "رشيدة" مراة خالي. وكل يوم بتعلم حاجات جديدة.. و النهارده... فين وفين لما أتعلم حاجة جديدة.

****

ولو حبيت تتكلم عن الصرامة والحزم والشجاعة، يبقى نتكلم عن جدي "دودوح"، كان يجي من بره يخبط على الباب بعصايته اللي مابتفرقوش خالص، ويكح كحة كبيرة ويقول:

- افتح الباب.

جدتي "اهلالية" تقوم جارية على طول، ولو فيه حاجة في إيديها، تسيبها، تفتح الباب بسرعة وتحب على إيده وتقول له:

- حمد الله على السلامة يا حاج.

توسع له ويدخل هو الأول وهي بعديه، يسألها:

- خير، كله تمام؟

تجاوبه:

- الحمد لله، كله بخير، طول ما انت بخير يا حاج.

كانت سيرته في الحتة، ليها شنة ورنة، كانوا ينادوه سي الحاج "دودوح"، كل الناس عاملة له حساب، وهو عامل للناس ألف حساب وحساب، لو حد محتاج.. مايتأخرش عليه، ولو فيه مشكلة في الحتة، يحلها، وكلمته تمشي على الكل، فيه ناس بتسمع كلامه، على شان بتحترمه وتثق فيه، وفيه ناس بتسمع كلامه، على شان بتخاف من العصاية اللي في إيديه، ولو سمع أي حس في البيت يزعق ويقول:

- إيه الدوشة دي..؟

لو اثنين بيتخانقوا، يتصالحوا ساعتها، ولو حد بيتكلم، يبطل، وجداتي وعماتي، وبابا وماما وإحنا كلنا، نحب على إيده، بقول جداتي لأنه كان متجوز تلات ستات، "يما الهلالية"، و"يما ميمونة"، و"يما رحمة".

لما يقعد على الأكل، التلاتة كانوا يخدموا عليه، واحدة تجهز الأكل، وواحدة تحط له الأكل، وواحدة عند راسه بتشوفه هو عايز إيه، كنا أنا وولاد عمي.."ياسين" و"نوفل"، نحب قوي نقعد معاه في غرفة نومه.. يشم النشوق، ويدينا منه حتة صغيرة نشمها ونقعد نعطس نعطس.. وهو يضحك ويتبسط، كنا نحب نشوف ضحكته وهو بيهزر معانا، لأنه مابيعملش كده مع حد غيرنا، كان بيسألنا:

- مين فيكوا الحمار بتاعي؟

كنا نرفع إيدينا ونتخانق حواليه أنا و"ياسين" و"نوفل" ونقول:

أنا.. أنا.. لأ أنا.....

فيضحك جامد، ولما يحب يستريح، يقول لجدتي "ميمونة" ادي بيضة لكل واحد فيهم، تدي لكل واحد فينا بيضة مسلوقة، من السلة المحطوطة تحت السرير، فنعرف إنه عايز يريح، نخرج ونسيبه ينام.

جدي "دودوح" كان نظره قليل، تقريبًا مابيشوفش، بيقولوا إنه زمان عمل حادثة بعربيته المرسيدس السودا الكبيرة، والزجاج دخل في عينيه،على شان كده كان بيركب مع بابا، بيروح معاه ويجي معاه وبابا هو اللي يسوق به.

جدتي هلالية كانت تنادي عليا وتقول لي:

- روح لعند الجامع، واستنى جدك لما يخلص الصلاة وجيبه!

لكن لو سألك، قول له إنك كنت معدي بالصدفة على شان ما يزعلش.

أفهم أنا، إنه مش عايز الناس تاخد بالها إنه ما بيشفش، أروح وأقف قصاد باب الجامع وأستناه، وهو خارج والعصاية في إيديه، أروح له وأحب على إيده وأقول له:

- إزيك يا جدي

يملس على شعري ويقول لي:

- إنت بتعمل هنا إيه؟

أقول له زي ما قالت لي جدتي "هلالية" بــالظبط، ونحــط إيدينا في إيد بعض، ونروّح على البيت.

****

عماتي في البيت بقوا يضايقوني، بيقولوا لي إن فيه مولــود جديد جاي في السكة، هياخد مكاني، وإني مش هبقى دلوعــة ماما وبابا.

أمي فعلاً بطنها اتنفخت، وساعات بتتوجع على شان الولد الجديد اللي جاي في السكة بيخبط برجليه، كنت بيقى عــايز أقول له:

- عيب يا اسمك إيه انت.!

لكن مابيقاش عارف هو اسمه إيه!

أمي راحت المستشفى، وأبويا أخدني على شان أشــوفها، لقيتها نايمة على السرير وجنبها الولد الجديد، قالوا لي:

- ده، أخوك الصغير.

عمتي "رحمة" قالت، نسميه "عدنان"، وماما وافقت، وبابا جاب خروف، وجاب راجل كبير اسمه "الشريف"، كنت بشوفه في بيت جدي سلام.. أبو ماما، بيروّق الجنينة ويسقي الورد، ويقص الشجر.

الشريف حط سكينة كبيرة على رقبة الخروف وقال:

- بسم الله، نسمي عدنان.

ودبح!!

إخواتي ساعتها كلهم، "زكريا" و"سمير" و"طارق" و"رشدي" و"خالد"، كانوا مع جدي "دودوح" في بيته اللي في الريف، ماكنتش فضلت معانا غير أختي "ألطاف"، اللي كانت زعلانة على شان عايزة بنت، أما أختي "سلوى" فكانت خلاص عايشة في هولندا مع جوزها "أحمد"، بقى لهم ييجي كده سنتين.

لما إخواتي رجعوا من الريف، أنا اللي خدتهم ووريتهم "عدنان"، لأن أنا اللي شفته الأول، وأنا اللي أعرفه قبليهم، قلت لهم إنه اسمه "عدنان"، كان نايم في السريرالصغير بتاعي اللي على شكل قفص، لكن غيروا له المرتبة والملايات.

أول حاجة عملها "عدنان" لما جه، إنه أخد السرير بتاعي، بس أنا مازعلتش، لأني بقيت بنام مع بابا وماما في السرير، ما بينهم.

مرة دخلت على "عدنان" وهو نايم، لقيته بيضحك، رحت لماما اللي كانت في المطبخ بتحضّر الأكل، وقلت لها:

- عدنان بيضحك وهونائم.

قالت لي:

- بيلعب مع الملايكة.

يعني مش مكفيه إنه ياخد السرير بتاعي، وكمان يلعب مع الملايكة، وأنا لأ!

حسيت إن "عدنان" محظوظ عني، ومن ساعتها بقيت أغير منه..!!

ومات جدي "دودوح"... ويومها.. بابا بكي كتير، كانت أول مرة أشوف فيها بابا بيبكي، كانت جدتي "هلالية" بتقول له:

- خلاص يا ابني.. إنت كده بتحرقه!!

يبص لها أبويا وهو بيشهق، ويقول لها:

- أهو يا أمي، أنا مابكيش، لكن الدموع بتترل لوحدها.

يومها العائلة كلها بكت، أنا و"ياسين" و"نوفل" بس اللـــي ما بكيناش، كنا مستغربين اللـــي بيحـــصل، البيـــت مليـــان ذِكر..وفقهاء بيقروا القرآن، والمطبخ مليان فراخ ولحمة.

****

وحصل إضراب ٨٢، الشوارع بقـــت مليانـــة عـــساكر برشاشات، والنافورة اللي بتطلـــع ميـــاه بـــألوان اتحاوطـــت بالدبابات، بقوا الناس يضربوا العساكر بالحجارة، والعـــساكر تضرب برشاشات متعمرة بملح، وساعات رصاص بجد، كـــان ممنوع نبص من السطح، وكمان ممنوع نخرج في حتتنا، وبكده مش هنعرف نروح المدرسة، كان باب البيت مفتـــوح علـــى طول، على شان لو حد من ولاد الحتة جـــري هربـــان مـــن العساكر، يعرف يزق الباب ويدخل على طول.

كان ممنوع على العساكر يدخلوا البيوت، زي ما ممنـــوع علينا إحنا نخرج من البيوت، كان "بوعزة" اللي بيشتغل عندنا على الموتوسكل أبو التلات عجلات، ساعات مايعرفش يروح بيتهم، فيضطر إنه يبات عندنا، على شان ساكن جوا المدينـــة العتيقة، والعساكر كانوا بيبقوا محاوطين سور المدينة، على شان يفصلوا السكان اللي جوا السور عن السكان اللي بره السور، وساعات لما "بوعزة" يروّح ومايجيش بكره، نبقى قلقانين عليه،

ولما يجي يحكى لنا إزاي دوّخ العساكر في الحواري الضيقة، وعرف يفلت منهم جوا المدينة العتيقة، لأن العساكر مش من المدينة بتاعتنا، مايعرفوش حواريها، كنت ببقى فخور، إن واحد بطل زي "بوعزة"، بيشتغل عندنا.

البيت كان دائمًا مليان بولاد الجيران، وساعات بولاد غير الجيران، ناكل مع بعض، و نحكي، ويحكوا لنا عن اللي بيحصل بره، كانت البصارة بزيت الزيتون ساعتها، هي الوجبة الأساسية، وكان طعمها بيبقى مالوش حل، مع ولاد الجيران.

سمعنا عن البنت الصغيرة اللي اتقتلت برصاصة طائشة، وهي بتلعب عند باب بيتهم، وسمعنا كمان عن الستات اللي كانت بتغلي زيت ومياه، وتدلقه على العساكر من فوق السطوح، وسط الحواري العتيقة.

الجيران كانو يسألوا على ولاد بعض، ويقلقوا على ولاد بعض، من اللي اتاخر ومن اللي ماجاش ومن اللي اتمسك ومين اللي اتضرب، وده يبات عند ده، الحقيقة إن مش كل حاجة حصلت إيام الإضراب، شوفتها، لكن الأخبار كانت بتوصلني كأني شوفتها بالظبط. ولما بزهق من القعاد في بيتنا، أنزل تحت لبيت جدي "دودوح"، أدخل غرفته وما ألاقيهوش، لكن ألاقي العصاية بتاعته لسه زي ما هي محطوطة جنب السرير، أبص لها لكن ما ألمسهاش.

وخلص الإضراب، والعساكر انهزموا ومشيوا، وإحنا رجعنا للمدرسة تاني.

ويوم عن يوم، "عدنان" بيكبر، ويوم عن يوم مكانته بتزيد، وياخد حاجات كانت ممكن تكون بتاعتي، لو هو مجاش.

وابتدأت الحرب، "عدنان" بقى عايز أي حاجة يشوفها عندي، حتى الملعقة اللي باكل بيها، حتى الكرسي اللي بقعد عليه، وأمي تقول لي:

- ماعلش ده أخوك الصغير.

وابتدأت المعارك، "عدنان" هو اللي بيبتدي بالضرب، وهو اللي بيعيط، وهو اللي بيصرخ وينادي على بابا، وبابا هو اللي بيكمل عليا.

لما كبرت وسافرت، بقى "عدنان" أكتر واحد بيوحشني، اكتشفت إني بحبه، وإني ماكنتش عايزه يعرف، لأنه كان بيلعب مع الملايكة، وأنا لأ.

****

أختي "سلوى" كانت تحب تمسك إيدي وتبص لها وتقول لي:

- إيدك جميلة قوي يا علي.

أبص أنا لإيدي.. وأقلبها كتير، عايز أشوف الجمال اللي فيها، لكن للأسف مابشفهوش،مش عارف أختي "سلوى" كانت بتشوفه إزاي!

كانت هي زي ماما، وأنا زي ابنها، بنادي لها ماما سلوى.. بتحمّيني، وبتلبسني، وبتأكلني، وبالليل بتحكي لي حواديت، يوم فرحها ما فارقتهاش، ويوم لما سافرت مع زوجها، على شان تعيش في هولندا، بكيت.. وهي كمان.. بكت، قالت لي:

- هرجع وآخدك تعيش معايا.

أختي "ألطاف"، كان عندها استعداد إنها تعوض ماما سلوى، لكن أنا ماكنش عندي استعداد خالص، كانت تدخلّني الحمام، وتحمّيني وتقول لي:

-أنا كمان لازم تناديني بماما ألطاف، شوف أنا بحمّيك، وبعتني بيك زي سلوى بالظبط.

أرشها بالمياه وأتنرفز عليها وأقول لها:

- إنت عايزة تبقي زي ماما سلوى،

ده بُعدك.

ساعتها تتنرفز عليا وتضربني.

بعد جواز أختي "سلوى" وسفرها بسنة، ركبنا الطيارة أنـــا وماما وسافرنا لها على هولندا، فــضلنا قاعــدين في المطـــار مستنيين، لغاية لما جت هي وزوجها "أحمد"، كانـــت قاصـــة شعرها قصير، أنا زعلت، لأن شعرها كان جميل وهو طويـــل، ماما كمان قالت لها:

- ليه يا بنتي يا سلوى، خسارة شعرك اللي قصتيه، ده البنـــات كانوا بيتحاكوا عليه.

"أحمد" زوجها قال لها:

- أنا كمان ماكنتش موافق، بس ماحبتش، أكسر بخاطرها.

قعدت هي معانا، وراح "أحمد" على شان يخلّص إجراءات المطار، لأنهم عايزين ضمان، وفعلاً خلّص الإجراءات وطلعنـــا بره المطار، وركبنا عربية "أحمد"، عربية حمـــرة صـــغيرة، وفي الطريق "أحمد" وقف عند بنزينة كانت فاضية، ونـــزل وحـــط البنزين في العربية بنفسه، وحط الفلـــوس، وركـــب العربيـــة ومشينا.

في تطوان وأنا مع بابا، لما يدخل بنزينة، كان ينادي علـــى حد شغلته يحط البنزين، وكمان ياخد الفلوس، هنا في هولنـــدا الموضوع مختلف تمامًا.

حتى الوجوه مختلفة، والألوان زاهية ومختلفة، الناس هنا مبتسمة على طول، وكمان بيتكلموا لغة غير لغتنا خالص، أختي "سلوى" علمتني أقول (داخ منير)، يعني مع السلامة يا سيدي، بقيت أقف في بلكونة البيت، وأشاور لجارنا في البلكونة اللي قصادنا، وأقول له:

– داخ منير.

فيشاور لي هو كمان، لغاية لما أزهقه، فيسيب البلكونة ويدخل على جوا.

كنا نخرج كلنا نروح محلات هنا وهناك، ونشتري هدوم ولعب، هولندا فيها حاجات كتيرة حلوة مش موجودة في تطوان. كنا كل يومين تقريبًا ناخد خبز من البيت، ونروح أنا وسلوى وماما على رجلينا، لجنينة الحيوانات اللي قريبة من البيت، على شان نأكّل البط اللي بيعوم في البِركة، كانت أول مرة أشوف فيها البط بيعوم في بِركة على الحقيقة، كنت بشوفهم قبل كده، في صور كتاب المدرسة بس، والصور اللي بتتلزق على السبورة. أختي "سلوى" كانت مصاحبة بطة بعينها، وأكتر واحدة في البط تحب تأكّلها، إنما أنا كنت مصاحبهم كلهم، وبأكلهم قد بعض.

"أحمد" زوج اختي على طول يفسحني بعربيته، ويشتري لي آيس كريم، طعمه أحلى من بتاع تطوان. لكن لما اشـــترى لي البطاطس المحمرة مع المايونيز، ماحبتهاش، طعمهـــا غريـــب، البطاطس اللي بتعملها ماما في البيت أحلى بكتير.

وهناك في هولندا، أختي "سلوى" عملت لي عيد المـــيلاد، كان أول مرة وآخر مرة أحتفل بعيد ميلادي، وكمان في يـــوم غيرعيد ميلادي بجد، قلت لأختي "سلوى":

- النهارده ماهواش يوم عيد ميلادي.

قالت لي:

- مش ضروري، أيام السنة كلها أعياد أهم حاجة إنـــا نحـــط خمس شمعات في التورتة، ونجيب لك الهـــدايا اللـــي بتحبـــها، وبكده، هنكون بنحتفل بعيد ميلادك.

الساعة ستة مساءً، الناس كلها في بيوتها!! الشارع فاضـــي خالص، الناس في هولندا بيناموا بدري، وبيـــصحوا بـــدري، اتعلمت أنا كمان أنام بدري زيهم، ولما رجعت تطوان رجعت أنام متأخر تاني، على شان في تطوان الناس بيناموا متأخرين.

لون السما في هولندا، كان على طول برتقالي محمر..

على الرغم من إن أخويا "عدنان" راح هولندا مرتين، مـــرة وهو في بطن ماما، ومرة وماما شيلاه، إلا إنه مش فاكر هولندا

دي خالص، وأنا اللي رحت مرة واحدة بس، فاكر فيها حاجات كتيرة.

****

لو حبيت تعرف معنى الحنية، يبقى لازم يكون لك جدة، زي جدتي "منانة"، مامة ماما، أو جدة زي جدتي "اهلالية" مامة بابا.

جدتي "منانة"، كانت دائمًا لابسة أبيض في أبيض، وماسكة سبحة في إديها، كانت تحب تأكلني بالغصب، ولو ما كلتش تزعل، لما كنا نروح عندها أنا وماما، كانت تدخلنا المطبخ أنا و"عثمان" ابن خالتي "اهلالية"، وتملأ لنا كوبيتين حليب سخن وتقول لنا:

- يلا عايزة أشوف مين فيكم هيخلص، كوبايته الأول.

أنا ماكنتش بحب الحليب السخن، ومع ذلك بخلص كوبايتي قبل "عثمان" ابن خالتي.

ولما تيجي "يما منانة" تزورنا في البيت، تجيب شنطة إيدها مليانة حلويات وشوكولاتة، وتقول لي:

- انده على ولاد عمك، ياسين ونوفل!

أروح أنده لهم وأقول لهم:

- يما منانة، جات!!

كانوا يخرجوا من بيتهم يجروا على بيتنا، بيبقوا عارفين إنها جابت معاها حاجات حلوة، كانت جدتي "منانة" توزع علينا الحلويات والشوكولاتة، وتبقى مبسوطة وفرحانة بينا، "ياسين" و"نوفل" بقوا يفرحوا بجدتي "منانة" لما تزورنا، أكتر ما بيفرحوا بجدتهم "آمنة" لما تزورهم.

أما جدتي "هلالية"، فكانت بتحبنا كلنا، لكن بتحب أختي "ألطاف" أكتر، و لما تبقى مسافرة للريف، تطلع عندنا الفجر، وتصحي "ألطاف" تسلم عليها، وتديها خمسة درهم، أنا كنت بيقى شايف، بس عامل إني نائم، وفي مرة صحيت الصبح، أخدت الخمسة درهم من "ألطاف" من غير ما تحس، ورحت على المدرسة، يومها اشتريت كل اللي نفسي فيه، لكن ما رحتش عند عم "قروعة"، لأنه مش هيصدق إن أنا ممكن يبقى معي الخمسة درهم مرة واحدة، وأكيد هيقول لبابا، على شان كده، اخترت محل تاني، مليان حلويات سبتة، أكتر من محل عم "قروعة" بكتير.

ولما رجعت البيت، كانت "ألطاف" ماخلتش حتة إلا ودورت فيها هي وماما، وأول ما شافتني طالع السلم وإيدي

مليانة حلويات، عرفت إن أنا اللي أخدت الخمسة درهم، قالت لي:

- إنت اللي أخدت الخمسة درهم، بتاعتي،

اللي يما هلالية إدتها لي؟

قلت لها:

- نعم..أيوه!! اشمعنى إنتي اللي يبقى معاكي خمسة

درهم، وأنا لا؟!

اتنرفزت عليا وحبت تضربني، لكن أمي ما سبتهاش، وقالت لها:

- طالما اعترف.. يبقى..خلاص.

شفت في عينين "ألطاف" نظرة تحدي، وشفت في عينين ماما نظرة احترام، ورجّعت الباقي من الفلوس لـ"ألطاف" وكمان دوّقتها من حلويات سبتة.

****

ونجحت.. وطلعت سنة رابعة ابتدائي، السنة رابعة دي تعتبر سنة حاسمة في حياة كل طفل حر شريف، كان اسمها في المغرب أيامها، "البروبي" (يعني السنة اللي بتعدي فيها من

الابتدائي للإعدادي)، ناس كتيرة أعرفهم سقطوا في البروبي ده، وخرجوا على الشغل عدل، النـــهارده، متجـــوزين ومخلفـــين وفاتحين بيوت، ومعاهم عربية، وعايشين مائة فل، مش عارف أنا إيه اللي دهوّلني على عيني، وخلاّني نجحت!

في سنة رابعة دي.. قابلت الحب الحقيقي، بنت زي فلقـــة القمر..كان اسمها "موني"..كانت معايا في الفصل، حبتها مـــن أول نظرة، وعرفت إن حبي لـــ "لطيفة" مدرسة الفرنـــساوي، و"جيمي القوية"، وكمان "هيكـــارو" اللـــي كانـــت مـــع "اغلينديزر"... كان مجرد وهم، وإني أخيرًا عرفت معنى الحب.

"موني" دي كانت رقيقة بشكل!! كانت قصة شعرها قصير قوي، بنسمي القصة دي في المغرب، كوب كاغسون (يعـــني قصة الولد)، وقليلين قوي البنات اللي بتليق عليهم القصة دي، القمامير بس اللي زي "موني".

مشيت وراها لغاية ماعرفت هي ساكنة فين، وعرفت سكة النخلة الكبيرة المليانة رطب، اللي كنت بشوفها من شـــبابيك الفصل بتاعي..

وفي أيام الإجازات، بقيت أروح أقف عند النخلة، وأبـــص على بيتهم، وتطلع هي البلكونة، تلاعب أخوها الصغير "عمر"،

كانت تبص لي، وتعمل نفسها مش شايفاني، كنت بقف قصاد البلكونة أبص عليها، زي ماكنت بقعد قصاد شـــجرة الـــتين الخضرة الكبيرة زمان، أبص على البچيك بتاعي.

- يا هل ترى، هييجي يوم أبص على البلكونة، ومالقكيش يا "مونى"؟ زي ما بصيت زمان على الشجرة الخضرة الكبيرة وما لقتش البچيك بتاعي؟!

****

عمي "اشعيب" كان دائمًا يناديني، الدكتور "علي"، أختي "ألطاف" كتبتها بقلم أزرق، تحت المرتبة الـــصغيرة اللـــى في المطبخ، وكل يوم من أيام التخميل، كانـــت المرتبـــة دي لازم تتقلب زيها زي أي حاجة في البيت، كان بيبقـــى مكتـــوب تحتها، الدكتور "علي الزيدي"، الظاهر إن كل العائلة، اتفقـــت إني هبقى دكتور، أنا نفسي صدقت، لكن دكتور في إيه؟ مـــش عارف..!! المهم، أقيس الضغط وأسمع نبض القلب.

****

وراحت أيام وجات أيام، والعمرجري، والنخلـــة الكـــبيرة اللي مليانة رطب، النهارده اتشالت، وبنوا مكانهـــا عمـــارة، و"يحيى" ابن حارس المدرسة، بقى هو الحارس بدل أبوه.

وعم "قروعة" خسر وقفل المحل، وبقى كمسري في الأتوبسات، بيقطع التذاكر، وبقى يصلي كل وقت بوقته، ومواظب على صلاة الفجر في الجامع.

وعمي "اشعيب" تزوج وخلف خمس بنات زي القمر وولدين، وساب القيادة، وساب جبل الحبيب وفتح مخبزة كبيرة، وحج.

وجنان "دودوح" اتبنى وناس جديدة جات سكنت فيه...

وجدتي "منانة"، تعبت قوي، مابقتش تقدر تمشي، لازم حد يمسكها ويقوّمها ويقعدها..

قبل ما تموت بتلات أيام، شفتها في الحلم.. جيه عليا بتمشي متعافية وبصحتها، وصلت لغاية عندي، وسلمت عليا بعنيها وابتسمت لي، وكملت الطريق، من غير ماتقول لي هي رايحة فين، بصيت ورايا وشفتها وهي بتبعد بعيد خالص..

ولما صحيت من النوم، عرفت هي راحت فين.

و"موني" تزوجت، حد خطفها، زي ما خطفوا زمان البچيك بتاعي..

وماتت جدتي "اهلالية".. والبيت الكبير فضي.. والنافورة اللي بتطلع مياه بألوان اتشالت، والوجوه بقت غير الوجوه، غريبة عليا.

كل حاجة اتغيرت.. و"بوعزة" فضل زي ما هو، بيركب الموتوسيكل أبو التلات عجلات، ويوزع قنينات الغاز في الحواري الضيقة، اللي العربيات الكبيرة ماتقدرش تدخلها.

والنهارده لما بتيجي أختي "سلوى" من هولندا كل صيف، بنقعد أنا وهي كتير مع بعض، نفتكر أيام زمان، مرة قلت لها:

- أنا حاسس إن بيتنا بقى صغير،

مع إنه زمان، كان كبير.

قالت لي:

- ده بس على شان كبرنا.. زمان وإحنا

صغيرين، كانت كل حاجة كبيرة.

أختي "سلوى" لسه بتقدر تشوف حاجات، أنا مابعرفش أشوفها.

واليوم، وأنا عمري ٣٢ سنة و٦ شهور و٧ أيام، فقدت كل إحساسي بالاختلاف، بإني مختلف عن العيال اللي في المدرسة، حاجة واحدة بس..اللي فضلت محافظ عليها، إني لسه بحب أبص للسما..

بالليل لما أشوف إن لون السما أسود، بقول ده بس على شان بالليل، ولو لونها أحمر بخاف لأني بحس إنه مش لونها

الطبيعي، وبالنهار لما تكون السما مغيمة، بقول إن لون الغيـــوم بيحجب لونها الطبيعي، ويوم لما بتكون السما صـــافية ولونهـــا أزرق، بقول أيوه هو ده لون السما الطبيعي، أزرق..زي مـــا علمونا في المدرسة بالظبط:

- لون السماء أزرق..وعلم بلادي جميل.

كان نفسي يختاروا اللون البرتقالي المحمر

القاهرة

٢٠٠٨/٠٧/١٩

